تعريف اللغة

ولكن ما اللغة ؟ . . سؤال تنبغى الإجابة عليه لتعريف ماهيتها ، قبل أن نحاول تحديد وظيفتها ، وقبل أن نسرد الآراء المختلفة فى نشأتها .

يطلق لفظ (لغة) على تلك الأصوات التى ينتجها جهاز النطق فى الإنسان ، معبرا بها عما يحس به من حاجات يريد بيانها والإيضاح عنها ، هكذا عرفها القدماء أيضاً ، حين قال أبو الفتح عثمان بن جنى : « أما حَدُّها ـ أى اللغة ـ فإنها أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم [1] ».

وبدهى أن موقف الفرد أمام هذه الأصوات لا يتعدى أحد احتمالين : فإما أن يكون منتجاً للأصوات ، وإما أن يكون متلقيا لها. وتتم عملية التفاهم بين الأفراد فى حدود هذا الإصدار والتلقى ، وبذلك تكون اللغة قد أدت وظيفتها الأساسية التى تتحقق بها شبكة العلاقات الاجتماعية ، وتنشأ بفضلها حضارة الإنسان . ومعنى ذلك أن اللغة هى (الكلام) منطوقا أو مسموعا ، أى أنها تتعامل مع عضوى اللسان والأذن .

ومعلوم هنا أن (اللسان) هو العضو الأساسى فى جهاز النطق الإنسانى، حتى لنجده يستعمل فى كثير من اللغات بمعنى (اللغة) ، وقد ورد استعماله بهذا المعنى فى القرآن الكريم ، قال تعالى : « فإنما يسرناه بلسانك لتبشر به المتقين ، وتنذر به قوما لُدًّا »[2] ، وقال : « وإنه لتنزيل رب العالمين . . . بلسان عربى مبين »[3] .

---

(١) الخصائص ١/٣٣ طبعة دار الكتب .
(٢) مريم /٩٧
(٣) الشعراء / ١٩٢ و ١٩٥

وهو أيضاً بنفس المعنى فى الفرنسية ، فكلمة Langue هى (لسان) ، وهى (لغة) ، غير أن (اللسان) بمعنى (اللغة) يعتبر من باب الاستعمال المجازى المتفرع عن دلالته الحقيقية ، بمعنى العضو المعروف فى الفم ، سواء فى ذلك العربيـــة والفرنسية ، والأمر لايختلف فى الإنجليزية بالنسبة إلى كلمة tongue .

واللغة بهذا المعنى هى من خصائص الإنسان وحده ، دون غيره من سائر المخلوقات ، التى تساكنه هذه الأرض ، رغم ما عرف من وجود نوع من المستويات اللغوية لدى الحشرات والطيور والحيوانات ، يتم بوساطته التفاهم المشترك بين أفرادها ، وهو ما أكدته البحوث العلمية أخيرا ، وجاءت به قديما إشارات القرآن فى قوله تعالى عن نملة سليمان : « قالت نملة : يأيها النمل ادخلوا مساكنكم ، لايحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون ، فتبسم (سليمان) ضاحكا من قولها » ، وقوله عن الهدهد : « فمكث غير بعيد فقال : أحطت بما لم تحط به ، وجئتك من سبأ بنبأ يقين . .الخ.. الآية »[1] .

ولا يبعد عقلا أن تكون لمخلوقات الله الأخرى لغات تتخاطب بها ، وقد يبدو لنا من هذه اللغات مظاهر نلحظها مثلا فى اختلاف صوت القطة فى حالة غضبها ، عنه فى حالة شجارها ، عنه فى حالة طلبها الطعام ، عنه فى حالة ندائها لقطاطها ، وهو أيضاً ما ندركه من نباح الكلاب عند الخطر ، أو فى حالات أخرى ، وهكذا سائر أنواع المخلوقات .

هذا القدر من الاختلاف يمنح النظر السطحى اقتناعا بوجود مستوى لغوى يتم به تعاون أفراد النوع فيما بينهم ، على الرغم من ارتباط وجود اللغة بوجود العقل لدى الإنسان ، فأثر العقل فى لغة الإنسان مدهش عجيب ، لايطيق أى وصف تصويره ، فلو أننا تصورنا وجود لغة بلا تحكم عقلى فى

(١) النمل /١٨و١٩و٢٢

عملياتها المنظمة لما كان ذلك غير ضوضاء خالية من المعنى ، شبيهة بما يصدر عن محركات السيارات ، أو عن احتكاك مادة بأخرى. ولقد يكون لمثل هذه الضوضاء حين تصدر من إنسان مريض بالخرس مدلول محدد أو قريب التحديد ، وذلك إذا اقترنت بإشارات تعين على هذا التحديد ، ووجود هذه الإشارات يدل على وجود نشاط عقلى لدى الأخرس ، ولو إلى حدما .

والفرق بين الأصوات اللغوية ، وبين الضوضاء هو ما نلاحظه من نظام فى الأولى ، واضطراب فى الأخرى ، والعقل هو مصدر هذا النظام فهو الذى يمنح جهاز النطق المحدود ثراء وفاعلية لا حدود لهما .

وحسبنا أن ننظر إلى جهاز النطق الإنسانى ، المتمثل أساسا فى الحنجرة واللسان وفراغ الفم ، وهى أعضاء محدودة الحجم ، محدودة الأوضاع ، تنتج عند تشغيلها مجموعة محدودة من الأصوات ، يصطلح على عددها أهل كل لغة ، فالعربية مثلا تتكون أحرف هجائها من ثمانية وعشرين حرفا صامتا ، يضاف إليها ثلاث حركات أساسية هى الفتحة والكسرة والضمة . والإنجليزية تتكون أحرف هجائها من سبعة وعشرين حرفا بما فيها الحركات ، ومع ذلك نجد أن هذه الحروف المحدودة تنتج أعداداً هائلة من التراكيب الصوتية ، تأخذ شكل (كلمات) ، تختلف من لغة لأخرى ، وتكاد تبلغ الملايين ، دون أن تستنفد إمكاناتها فى إنتاج (كلمات) جديدة ، طبقاً لقوانين اللغة المصطلح عليها . وعلى مستوى لغات العالم البالغة الكثرة .

ثم إن عقل الإنسان لاتنتهى حيله ، ولا تفرغ وسائله فى محاولاته إثراء اللغة ، باستعمال الكلمات الموجودة فعلا فى معان متجددة ، عن طريق التوسع المجازى ، حتى لتعبر الكلمة الواحدة عن مجموعة من المعانى ، تميز بينهما السياقات المختلفة ، وهو أمر مألوف لنا فى اللغة العربية ، وسنرى له أمثلة كثيرة .

ومن الملحوظ فيما يتعلق بالأصوات (التى يعبر بها كل قوم عن أغراضهم) أن المجموعات الصوتية قد تتفق ما بين لغة وأخرى ، ولكن الدلالة التى تحملها المجموعة المعينة هى التى تختلف ، وذلك كأن نجد المجموعة الصوتية (mat) فى العربية تعنى الهلاك والعدم (مات) ، على حين أنها تعنى فى الإنجليزية (حصيرة أو برشا) ، مع تساوى النطقين فى كلتا اللغتين . كذلك نلاحظ فى المجموعة الصوتية hall وهى فى الإنجليزية بمعنى (قاعة أو ردهة) ، أنها ذات معنى آخر فى العامية المصرية (هول) أى : ما يبعث الفزع والرعب .

ومعنى ذلك أن اصطلاح أصحاب اللغة على شكل المجموعة الصوتية يصحبه دائماً اصطلاحهم على ما تحمله من شحنة دلالية ، وذلك هو الذى يفصل فى الكثير الغالب ما بين لغة وأخرى .

ومن دلالة المجموعة الصوتية فى اللغة الواحدة على معان متعددة ما نجده فى العربية من دلالة كلمة (جبن) على ذلك الطعام المستخرج من اللبن ، وعلى الخلق المذموم ، نقيض الشجاعة ، ومثل كلمة (عين) التى تعنى فى العربية على التوالى : الباصرة ، والجاسوس ، والجارية والنبع ، وانضاف إليها حديثا : المصباح الكهربائى فى جهاز الراديو ، المسمى بالعين السحرية ، وربما تجد بفعل التطور معان كثيرة تدل عليها هذه المجموعة الصوتية .

هذا التعدد فى معنى المجموعة الصوتية يتيح للناطقين باللغة أن يستخدموها فى حديثهم بهدف التورية حين يريدون المعنى غير القريب ، متذرعين إليه بالاختفاء خلف المعنى القريب .

ومن المفيد أن نعلم أن هذا التعدد فى معنى اللفظ الواحد ، أو معنى المجموعة الصوتية الواحدة ـ سمة من سمات اللغات المتحضرة ، إذ هو أولا : يوفر على الذهن الإنسانى مهمة معرفة كثير من المجموعات التى تعنى كل منها

معنى واحداً فقط ، كما أنه يقوم على أساس الذكاء الإنسانى الذى يستطيع أن يضع الكلمة فى موضعها ، وأن يفهم ما يراد بها حين ينظر فى سياقها .

وذلك بعكس اللغات البدائية التى تضع لكل شىء تسمية خاصة ، حتى ولو تشابهت الأشياء ، أو كانت بينها علاقة تسمح بتوحيد الاسم المطلق عليها ، فرأس الإنسان غير رأس الجبل ، غير رأس الحيوان ، غير رأس الشجرة ، كل منها له اسم خاص به وفى ذلك مافيه من إرهاق للذهن الإنسانى ، وإهمال للذكاء ، ولكنه مناسب طبعاً للمرحلة البدائية التى تمر بها اللغة .[١]

ولقد يطلق لفظ (لغة) على ماتراه العين من أشكال ورموز مكتوبة ، لكن هذا الإطلاق فيه بعض التوسع ، إذ أن الحروف كما يقول إدوارد سابير العالم اللغوى المعروف ليست سوى رموز الكلام الملفوظة ، فإذا ماعلمنا أن الأصوات ليست فى حقيقتها سوى رموز اختارها الإنسان للتعبير عما يدور بخلده من معان مرادة له - أدركنا بسهولة علاقة الحروف بالأصوات فى نطاق اللغة ، فهى رموز الرموز[٢] وسنفرد هذا الموضوع بعلاج خاص .

وليس إطلاق لفظ (لغة) على أنها تعبير عن حاجات الإنسان - مقصوداً به أنها تعبير مقصور على ضروراته الحيوية (البيولوجية) ، إذ أن هذا المستوى هو أدنى مستويات التعبير ، وهو أشبه - مع الفارق الكبير طبعاً - بما يصدره الحيوان من أصوات يفهم منها أنه جائع ، أو عطشان ، أو مذعور خائف ، فالحيوان فى هذه الحال يعبر عن حاجة أساسية يطلب إشباعها ، حين يكون بحاجة إلى الطعام ، أو الشراب ، أو الأمن .

إن اللغة - فى واقع الأمر - تتجاوز هذا المستوى ، إلى أنها تعبير عن

---

(١) دلالة الألفاظ - ص ٩٩ - الطبعة الثانية .
(٢) علم اللغة ، مقدمة للقارىء العربى - ٨ ، - تأليف الدكتور محمود السعران .

الأهداف السامية التي يدور في فلكها العقل البشري ، متأملا حقائق الكون ، أو متطلعاً إلى اكتناه أسراره ، أو معبراً عن علاقات جمالية أو نفسية دقيقة ، وهي بهذا المستوى أو التصور تعد أداة مميزة للوجود الإنساني ، لا يشركه فيها غيره من الكائنات التي تعايشه على ظهر الأرض .

ولأمر ما . . كان قوله تعالى « الرحمن ، علم القرآن ، خلق الإنسان ، علمه البيان[1] » ، فالمراد الأصلي من أن الله سبحانه علم الإنسان (البيان) هو أنه علمه اللغة التي يبين بها عما في نفسه ، بما يشمل المستويات الرفيعة في البيان ، من حيث كونه ظاهرة إنسانية راقية يتميز بها عن سائر الكائنات[2] .

ونستطيع بعد هذا أن نخرج بتعريف عام للغة ، هو أنها : « نظام من العلامات الاصطلاحية ذات الدلالة الاصطلاحية »[3] .

ويقصد بكلمة (العلامات) : الأصوات الصادرة عن جهاز النطق الإنساني ، فهي في الحقيقة رموز أو علامات للدلالات التي ضُمِّنتها ، وهي رموز اصطلح على أشكالها ، وكيفياتها ، وكمياتها ، بالقدر الذي تسمح به اللغة المعينة ، كما اصطلح على الدلالة التي ترتبط بكل مجموعة من الأصوات .

و(اللغة) بهذا التحديد يمكن أن تطابق (الكلام) ، بل هي كذلك من الوجهة اللغوية الحرفية ، ففي المعجم العربي : « واللغة من الأسماء الناقصة ، وأصلها : لغوة ، من : لغا إذا تكلم ، ويقال : لغى يلغى لغة ، ولغا يلغو لغوا : تكلم ، وزنتها : فُعْلَة ، لأن أصلها : لُغْوَة[4]

---

(١) الرحمن ١ ـ ٤

(٢) تفسير القرطبي ١٧ ـ ١٥٢ ـ ط . دار الكتب .

(٣) علم اللغة ـــ د . السعران ـــ ص ٦٦ .

(٤) لسان العرب ـــ لغو

ويذلك يكون (علم اللغة) هو (علم الكلام) ، غير أن هذا المصطلح الأخير قد اكتسب خلال التاريخ معنى مغايراً لما يفهم منه ابتداء ، إذ يراد به (علم الجدل حول بعض القضايا الدينية) ، ومن ثم سمى علماؤه (بالمتكلمين) ، إذ كان من شأنهم دائماً القول فى مجموعة من التراكيب والقضايا ذات الدلالة الجدلية .

فكان لابد من تسميته (علم اللغة) فى المصطلح الحديث ، فى مقابل المصطلح الأوربى : La linguistique، أو فى مقابل Science du Langage

مصطلحات ثلاثة

اللغة — اللسان — الكلام

جرى اصطلاح علم اللغة الحديث على التفرقة بين ثلاثة مصطلحات ، باعتبارها من مصطلحات العلم ، وقد سبقت الإشارة إلى أن نشأته حديثا كانت أوربية ، وأننا تلقيناه بمناهجه ومصطلحاته فى معاهد أوربا وكتبها ، كيما نطبق أفكاره ، ونفيد من مناهجه .

وقد وجدنا أن دوسوسور يفرق بين ثلاثة مفاهيم،وضع لكل منها كلمة مستقلة تدل عليه فى إطار هذا العلم ، فهو يرى أن هنالك كيانا عاما يضم النشاط اللغوى الإنسانى ، فى صورة ثقافة منطوقة ، أو مكتوبة ، معاصرة أو متوارثة ، وباختصار : كل مايمكن أن يدخل فى نطاق النشاط اللغوى من رمز صوتى أو كتابى ، أو إشارة أو اصطلاح ، نخص هذا النشاط بكلمة Langage ، أى : (اللغة) ، ثم إنه ينظر إلى اللغة المعينة بطريقتين ، فإما أن تكون فى صورة منظمة ذات قواعد وقوانين، وذات وجود اجتماعى،فيطلق عليها Langue ، ويقابلها فى العربية : (اللسان) ، وإما أن تكون فى صورة ممارسة فردية منطوقة ، على أى مستوى ، ويطلق عليها : Parole ، وهو بالعربية : (الكلام) .

وإذا نحن سقنا هذه الأفكار على هذا النحو من التبسيط فربما أسأنا إلى الرجل ، الذى يعد تصوره لموضوع علم اللغة الحديث أشبه بقانون ملزم لكل من جاء بعده من العلماء والباحثين ، فى الشرق والغرب على سواء ، فقد عاش دوسوسور فى فترة تعد من أخطر مراحل الفكر الإنسانى ، حيث

كانت بداية هذا القرن العشرين تشهد ميلاد كثير من الأفكار الحضارية ، وتطبيقاتها على سائر ضروب النشاط الإنسانى .

وكانت فكرة التطور ، وفكرة الوجود الجمعى، وفكرة النوافذ المفتوحة بين سائر ضروب المعرفة الإنسانية — من الأفكار الأساسية التى حفرت لنفسها قناة متدفقة فى فكر دوسوسور، فبدأ يطبق كل معطيات نظرية التطور وما يتصل بها من دراسة للعلاقات التاريخية بين اللغات ؛ وما يستتبعه ذلك من مقارنات لغوية بين الأصول والفصائل ، كما بدأ يفيد فى دراساته من معلومات علوم مختلفة كعلم الحياة، والفيزياء ، ووظائف الأعضاء ، والتشريح، وعلم الصوت (الأكوستيك) ، وعلم النفس ، وعلم الإنسان ، وعلم الأجناس ، وعلم الاجتماع ، والرياضيات .

وكل ذلك يضفى طابع الثراء على علاج دوسوسير لمسائل علم اللغة ومناهجه كما يراها ، وليس من الممكن عرض وجهة نظره فى المشكلة التى نحن بصددها إلا بأن نقدمها كاملة كما عبر عنها ، فإن أفكاره تبدو دائما حية ، حتى ولو بدا أن الزمن تخطاها إلى غيرها من مظاهر التجديد .

تعريف اللغة واللسان

عند دوسوسور (١)

ما الموضوع المتكامل والمادى لعلم اللغة ؟ سؤال صعب ، ولسوف ندرك فيما بعد أسباب صعوبته ، ولكننا نقتصر الآن على محاولة إدراك هذه الصعوبة فى ذاتها .

إن هناك علوما تبحث موضوعات معينة مقدما ، ثم يجد الباحثون أنفسهم بعد ذلك فى حاجة إلى معالجتها من نواح أخرى ، وهو أمر يتجلى أكثر مايتجلى فى علم اللغة . ولنأخذ على ذلك مثالا : فإذا نطق إنسان الكلمة الفرنسية (nu) فإن الملاحظة السطحية سوف ترى فيها موضوعا لغويا ماديا ، ولكن النظر المدقق قد يرى فيها ثلاثة أو أربعة أشياء يختلف بعضها عن بعض اختلافا كاملا ، تبعاً للطريقة التى ينظر بها : فهى صوت ، وهى تعبير عن فكرة ، وهى مقابل للفظة اللاتينية (nûdum) . . . إلخ . . . وبصرف النظر عن أن الموضوع يسبق دائما الرأى فيه - فإن من الممكن القول بأن الرأى هنا هو الذي يخلق الموضوع ، ومع ذلك فإن شيئا لايدلنا مقدما على أن واحدة من هذه التصورات تسبق الأخرى أو تلحقها .

ومهما يكن الأمر الذي نأخذ به فى ترتيبها فإن للظاهرة اللغوية وجهين دائما يتقابلان ، ولايتضح أحدهما إلا بوجود الآخر ، ومثال ذلك :

---

(١) أنظر : cours de Linguistique générale - ص ٢٣ وما بعدها ،

أولا : أن المقاطع التى ننطقها هى تأثيرات صوتية طبيعية Accoustique تستقبلها الأذن ، ولكن الأصوات ما كانت لتوجد دون أعضاء النطق ، فالنون مثلا لاتوجد إلا بالتقاء هذين الجانبين . فليس من الممكن إذن أن نحصر اللسان la langue فى الصوت، ولا أن نفصل الصوت عن النطق الفموى، أى : أننا لانستطيع أن نعرف حركات الأعضاء النطقية إذا ماغضضنا النظر عن التأثير الصوتى .

ثانياً : فلنقرر جدلا أن الصوت شىء بسيط ، ولكن هل هو الذى يصنع اللغة ؟... كلا ، فهو ليس سوى أداة للفكر ، وهو لم يوجد من أجل ذاته ، ومن هنا ينشأ تقابل جديد وهام ، هو : أن الصوت ، من حيث كونه وحدة صوتية نطقية مركبة accoustico-Vocale يكون بدوره مع الفكرة وحدة مركبة عضوية physiologique وذهنية Mentale . وليس هذا هو كل مافى الأمر .

ثالثاً : أن للغة وجهاً فرديا ، ووجهاً اجتماعيا ، ولايمكن تصور أحدهما دون الآخر .

رابعا : ثم إن للغة فى كل لحظة نظاما ثابتا ، وحركة متطورة ، وهى فى كل لحظة بناء حاضر ، ونتيجةُ ماضٍ ، ولقد يخيل إلينا للنظرة الأولى أن من السهل أن نفصل بين هذا النظام وتاريخه ، أى : بين ما كان وماهو كائن، والواقع أن العلاقة التى توحد هذين الأمرين جد وثيقة ، لدرجة يصعب معها فصلها .

وهنا نسأل : هل يكون الأمر أكثر يسرا إذا ماتناولنا الظاهرة اللغوية من مباديها ، أعنى : إذا بدأنا بدراستها فى لغة الأطفال مثلا؟ . . كلا . فإن

من الخطأ أن نعتقد فيما يتعلق باللغة أن مشكلة الأصول تختلف عن مشكلة شروط البقاء ، وإذن فلن نستطيع الخروج من الحلقة .

وهكذا ، من أى الجهات أتينا القضية لا يتاح لنا أن نضع بين أيدينا الموضوع الكامل لعلم اللغة ، إذ أننا نصادف في أى احتمال هذا الخيار المحرج: فإما أن نتناول جانبا واحدا من كل مشكلة ، وبذلك نجازف باحتمال ألا نعالج الثنائيات المذكورة آنفا ، وإما أن ندرس اللغة من جوانب متعددة فى آن واحد ، فيبدو لنا موضوع علم اللغة أشبه بكم غامض من الأشياء المتفاصلة المفككة ، دون رباط فيما بينها .

فإذا نحن سرنا على هذا النحو فتحنا الباب لعلوم كثيرة كعلم النفس ، Psychologie ، وعلم الإنسان Anthropolgie ، والنحو التاريخى ، والفيلولوجيا .. إلخ ، وهى علوم نرى أن نفصلها فصلا قاطعا عن علم اللغة . وإن كانت اللغة ، طبقا لمنهج غير دقيق — يمكن أن تعتبر موضوعا من موضوعاتها .

ليس هناك فيما نرى سوى حل واحد لكل هذه الصعوبات هو أنه : يجب أن نحصر أنفسنا أساسا فى مجال اللسان ، وأن نتخذه مقياسا لجميع مظاهر اللغة .

والواقع أن اللسان ، مهما كثرت الثنائيات ، يبدو وحده صالحا لتعريف مستقل ، وهو يقدم نقطة ارتكاز كافية للعقل .

ولكن ما اللسان — La Langue ؟ ... فى رأينا أنه لا يختلط

باللغة Le Langage ، فهو ليس سوى جزء محدد أساسى منها ، والحق أنه نتاج اجتماعى لملكة اللغة Le Langage ، وهى مجموعة من الأعراف الضرورية ، يستخدمها الكيان الاجتماعى ، ليسمح بمزاولة هذه الملكة عند الأفراد .

فأما إذا أخذنا اللغة فى مجموعها فسنجد لها أشكالا كثيرة ، ومتضاربة ، لأننا إذا تناولناها فى مجالات متعددة ، مادية وعضوية ونفسانية، فإنها تنتمى أيضا إلى مجال فردى ، وإلى مجال اجتماعى ، وبذلك لا نستطيع أن نضعها فى أية مجموعة من الأحداث الإنسانية ، لأننا لا نعرف كيف نحقق وحدتها .

واللسان بعكس ذلك هو كل فى ذاته ، وهو مبدأ تصنيف ، فإذا نحن أجللناه فى المكان الأول من كيان اللغة فإننا ندخل نظاما طبيعيا فى مجموع لا يخضع لأى تصنيف آخر .

ومن الممكن أن نعترض على هذا المبدأ فى التصنيف ، حين نرى أن ممارسة اللغة تعتمد على ملكة نستمدها من الطبيعة ، على حين أن اللسان شىء مكتسب وعرفى ، ينبغى أن يكون تابعا للغريزة الطبيعية ، بدلا من أن يتقدم عليها .

وللإجابة عن ذلك نقول : ليس من الثابت أولا أن وظيفة اللغة ، وهى التى تتجلى عندما نتكلم ، تكون طبيعية فطرية بصورة كاملة ، أعنى : أنه ليس مسلما أن جهازنا النطقى قد صنع ليتكلم ، كما أن أرجلنا خلقت لنمشى عليها ، ولم يتفق اللغويون حول هذه النقطة .

فوايتنى Whitney الذى يشبه اللسان بالمنظمة الاجتماعية كغيرها من المنظمات ، يرى أننا نستخدم الجهاز النطقى أداة للسان بمحض الصدفة ، ولأسباب تتصل بسهولة الاستعمال ، وقد كان بوسع الناس أن يختاروا أيضا الإشارة ، وأن يستعملوا الصور المرئية ، بدلا من الصور الصوتية .

ولا شك أن هذه النظرية شديدة الإطلاق ، فاللسان ليس منظمة اجتماعية مماثلة فى كل شىء لغيرها من المنظمات . وفضلا عن ذلك فإن وايتنى يذهب بعيدا عندما يقول : إن اختيارنا قد وقع بمحض الصدفة على الأعضاء النطقية ، فلقد فرضت علينا الطبيعة ذلك بصورة ما .

بيد أن هذا اللغوى الأمريكى يبدو لنا من ناحية أخرى على صواب ، فإن اللسان اتفاق ، وطبيعة الرمز المتفق عليه قليلة الأهمية ، فمسألة الجهاز النطقى إذن هى مسألة ثانوية فى مشكلة اللغة .

ولقد يؤكد هذه الفكرة ما نجد من تعريف لما يسمى باللغة المنطوقة le langage articulé فى اللاتينية articulus بمعنى (عضو ، جزء ، قسم فى مجموعة من الأشياء) ، وفيما يتعلق باللغة يمكن أن يقصد بالنطق أحد أمرين : فإما أن يكون قسما من السلسلة المنطوقة فى صورة مقاطع ، وإما أن يكون قسما من سلسلة المعانى التى تتمثل فى وحدة معنوية .

فإذا أخذنا بهذا التعريف الثانى لأمكننا القول بأن اللغة المنطوقة ليست هى الشىء الفطرى الطبيعى فى الإنسان ، ولكن الفطرى هو القدرة على تكوين لسان ، أعنى : ذلك النظام من العلامات المتميزة المقابلة للأفكار المتميزة .

ولقد اكتشف بروكا Broca أن ملكة الكلام منحصرة فى القسم الثالث من تلافيف المخ الأمامية اليسرى ، ومن ثم ذهب إلى أن اللغة ذات صبغة فطرية ، بيد أن من المعروف أن هذا الانحصار قد لوحظ بالنسبة إلى كل ما يتصل باللغة ، بما فى ذلك الكتابة .

فإذا ضممنا هذه الملاحظات إلى ماعرف عن مختلف أشكال الخرس ، الناشئة عن خلل هذه المراكز المخية لظهر لنا :

أولا : أن الاضطرابات المختلفة فى اللغة الشفوية متشابكة متداخلة بمائة شكل ، مع اضطرابات اللغة المكتوبة .

ثانيا : أن جميع حالات الخرس ، والعجز عن الكتابة تشير إلى أن الذى أصيب هو القدرة على التلفظ بهذا الصوت أو ذاك ، أو رسم هذه العلامة أو تلك ، ولكن بدرجة أقل من القدرة على استدعاء رموز لغة منظمة بوساطة أداة معينة ، أية كانت هذه الأداة .

وكل هذا يؤدى بنا إلى أن نعتقد بوجود قدرة أكثر عموما ، تسيطر على تشغيل مختلف الأعضاء ، وهى التى تتحكم فى العلاقات والرموز ، وتلكم هى الملكة اللغوية بالمعنى الصحيح ، وبهذا نصل إلى نفس النتيجة التى أسلفنا .

ولكى نخص اللسان بالمكان الأول فى دراسة اللغة يمكننا أخيراً أن نفيد من هذا الدليل ، وهو أن القدرة ـ الفطرية أو غير الفطرية ـ على نطق الكلام لا تمارس إلا بمساعدة الأداة المخلوقة ، والتى هى عطاء المجتمع ، فليس

إذن من باب التوهم أن نقول بأن (اللسان) هو الذى يحقق وحدة (اللغة) [انتهى كلام دوسوسور] .

* * *

والواضح من هذا كله أن هناك تفرقة ضرورية بين اللغة ، واللسان ، من حيث كانت الأولى دالة على تلك الظاهرة الإنسانية فى عمومها ، وكان الآخر دالا على نظام متعارف عليه داخل جماعة إنسانية محددة .

وقد اخترنا أن نجعل مقابل Langage مصطلح (اللغة)، ومقابل Langue مصطلح (اللسان) ، وكذلك فعل المرحوم الدكتور محمود السعران فى كتابه (علم اللغة ـ مقدمة للقارىء العربى) ، والواقع أن اختيار هذه الترجمة للمصطلحين يقترب من مذهب بعض اللغويين فى الشمال الافريقى ، ومن بينهم محررو مجلة اللسانيات ، التى يصدرها معهد العلوم اللسانية والصوتية بالجزائر ، وعلى رأسهم الأستاذ عبدالرحمن الحاج صالح ، حيث اختاروا أن يترجموا Linguistique بعلم اللسان ، فكأنهم تجاهلوا صلاحية لفظ (لغة) للاستعمال فى هذا المجال ، ولهم فى ذلك تحليل علمى وسلفى منشور[1] :

أما الذى جرينا عليه فى استعمال المصطلحين فهو موقف يحل مشكلة ينبغى الاتفاق العاجل بشأنها ، توحيداً للجهود ، وتوفيراً للوقت ، ولقد يبدو استعمال مصطلح (لسان) غريبا لدى الدارسين ، ولكن من الممكن استخدامه عندما

---

(١) أنظر مجلة اللسانيات المجلد الأول ـ الجزء الأول ١٩٧١ ـ مقال رئيس التحرير ص ٢٨ وما بعدها .

يراد به التعبير عن لغة معينة ، كما أن من الممكن أن يحل محله التعبير بمصطلح (لغة) موصوفا بما يحددها ، كأن يقال : (اللغة العربية) أو (لغة الاصطلاح) أو (اللغة العلمية) ، فهذا فى نظرنا يؤدى المعنى المراد من التعبير : (اللسان العربى) و (لسان الاصطلاح) و (اللسان العلمى) ، وأول هذه التعبيرات وارد فى القرآن الكريم فى قوله تعالى : (بلسان عربى مبين)[٢] وإن جرى الاستعمال الشائع على تفضيل التعبير (اللغة العربية) ، وهو ما لا يختلف مع خواص المصطلحات كما حددها رائد علم اللغة الحديث .

---

(٢) الشعراء / ١٩٥ .

مكان اللسان والكلام فى أحداث اللغة (١)

لكى نجد فى مجموع اللغة ـ المجال الذى يقابل اللسان ـ يجب أن نقف أمام العمل الفردى الذى يسمح بإعادة تكوين دائرة (الكلام) ، هذا العمل يفترض وجود فردين على الأقل ، وهو الحد الأدنى المعقول لتكتمل الدائرة، فلدينا إذن شخصان ا ، ب يتحادثان :

ونقطة بدء الدائرة هى فى مخ أحدهما (ا) مثلا ، حيث توجد أحداث التفكير التى نطلق عليها (أفكارا) ، مختلطة بغيرها من العلامات اللغوية ، والصور الصوتية المستخدمة فى تعبيره .

ولنفرض أن فكرة معينة قد فجرت فى المخ صورة صوتية مقابلة لها ، فتلك ظاهرة نفسية بصورة كاملة ، تتبعها حركة عضوية ، إذ أن المخ ينقل إلى أعضاء التصويت أمرا يتفق مع الصورة ، ثم إن الموجات الرنانة تنبعث من فم (ا) إلى أذن (ب) : وتلك حركة مادية محضة physique .

---

(١) دوسوسور Cours de Ling. générale ـ ص ٢٧ وما بعدها .

وبعد ذلك تستمر الدائرة لدى (ب) فى صورة أمر معاكس ، من الأذن إلى المخ ، وهو نقل عضوى للصورة الصوتية ، وفى داخل المخ يجرى تداع نفسى لهذه الصورة مع الفكرة المقابلة ، فإذا تكلم (ب) بدوره فإن هذا العمل الجديد سوف يتتابع من مخه إلى مخ (ا) ، وهى نفس الرحلة الأولى ، وسوف يمر بنفس المراحل المتتابعة التى نصورها على النحو التالى :

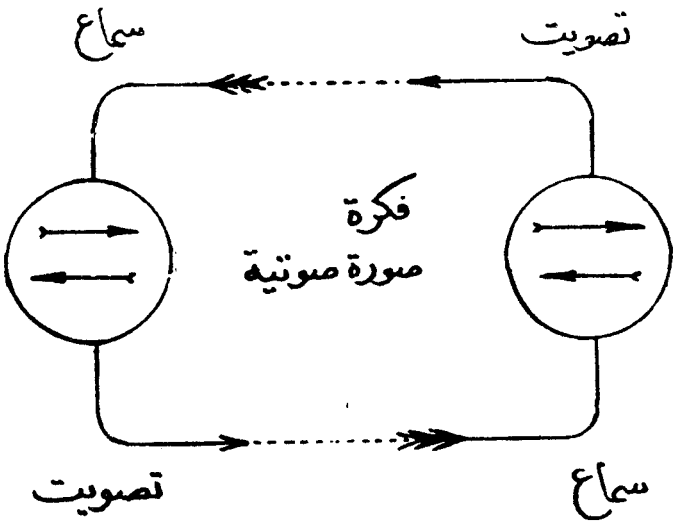

هذا التحليل لا يدعى الكمال فإن من الممكن أن نميز عنه أيضا : الإحساس الصوتى المحض ، ويتمثل هذا الإحساس فى الصورة الصوتية الخفية ، وفى الصورة العضلية للأثر الصوتى .. الخ .. ونحن لم نضع فى اعتبارنا سوى العناصر التى نراها جوهرية ، بيد أن رسمنا يسمح ابتداء بتمييز الأجزاء المادية Physique (وهى الموجات الرنانة) ، من الأجزاء العضوية Physiologique (التصويت والسماع) ، والنفسية (الصور الشفوية ، والأفكار) .

ومن المهم فى الواقع أن نلاحظ أن الصورة الشفوية لا تختلط مع الصوت ذاته ، وأنها ذات طابع نفسانى ، شأن الفكرة التى استدعتها .

هذه الدائرة التى قدمناها يمكن أن تنقسم إلى :

(ا) جزء خارجى فى صورة (ذبذبات أصوات ذاهبة من الفم إلى الأذن) ، وجزء داخلى يشمل كل ماتبقى .

(ب) جزء نفسانى ، وجزء غير نفسانى . وهذا الثانى يضم الأحداث العضوية التى تصدر عن الأعضاء . كما يضم الأحداث المادية Physique الخارجة عن الفرد .

(ج) جزء إيجابى ، وجزء سلبى ، فكل مايصدر عن مركز التداعى من أحد الفردين إلى أذن الفرد الآخر — هو إيجابى ، وكل مايصدر عن الأذن إلى مركز تداعيه هو سلبى .

وأخيراً ففى الجزء النفسانى الموجود فى المخ يمكن أن نطلق وصف (مرسل) على كل ماهو إيجابى : (فكرة ← صورة) ، وأن نطلق وصف (مستقبل) على كل ماهو سلبى : (صورة ← فكرة) .

ويجب أن نضيف القدرة على التداعى والتنسيق ، وهى تظهر عندما تختفى العلامات المفردة ، وهذه القدرة هى التى تقوم بأكبر دور فى تنظيم اللسان ، من حيث هو نظام .

ولكنا لكى نحسن فهم هذا الدور يجب أن نخرج من دائرة العمل الفردى ، الذى ليس سوى جنين للغة ، ثم نشارف الحدث الاجتماعى ، فهؤلاء الأفراد ، الذين ربطت بينهم اللغة — سوف يستقر فيما بينهم نوع من القدر المشترك ، وسوف تنتج لديهم نفس العلامات التى توجد نفس الأفكار ، إن لم يكن على سبيل التطابق ، فعلى وجه التقريب .

فما منشأ هذا التبلور الاجتماعى ؟ .. وأى طرف الدائرة هو المهم هنا ؟ ذلك أن من المحتمل ألا يكون اشتراك كل فرد فى هـــذا الواقع مساوياً للآخرين ، ولربما استطعنا أن نسقط الجزء المادى من أول لحظة ، عندما نسمع رجلا يتكلم لساناً نجهله ، فنحن نستقبل الأصوات ، ولكنا نظل خارج الحديث الاجتماعى بسبب من عدم فهمنا .

والجزء النفسانى لايدخل هنا أيضاً بصورة كاملة ؛ ذلك أن الجانب المرسل يبقى خارج المحال ، لأن الإرسال لايصدر مطلقاً عن الجماهير ، فهو أبداً فردى ، والفرد هو دائماً مصدره ، ولسوف نطلق عليه : الكلام .

وإنما يتكون لدى الأفراد المتكلمين بفضل تشغيل القدرات المستقبلة والمنسقة ـ إحساس يصل إلى درجة التوحد فيما بينهم ، فكيف يمكن أن نتصور هذا الواقع الاجتماعى حتى يخلص لنا اللسان فى النهاية ؟ ..

إننا إذا استطعنا أن نضم مجموعة الصور الشفوية المختزنة لدى جميع الأفراد فقد نلمس الرباط الاجتماعى الذى يكون اللسان ، فهو كنز مودع بوساطة ممارسة الكلام لدى الأفراد المنتمين إلى مجتمع مشترك ، وهو نظام نحوى موجود افتراضاً فى كل مخ ، أو على الأصح : فى أمخاخ مجموع الأفراد ، وهو لايوجد كاملا إلا فى الجماهير .

فإذا مافصلنا اللسان عن الكلام ، فإننا نفصل فى نفس الوقت :

أولا : ماهو اجتماعى عما هو فردى .

ثانياً : ماهو أساسى عما هو تابع ، أو عارض .

واللسان ليس وظيفة الفرد المتكلم ، إنه الثمرة التى يسجلها الفرد دون

قصد أو وعى ، وهو لا تتطلب سبق التأمل . وليس للتفكير دخل فيه إلا من أجل مهمة الترتيب .

أما الكلام فهو على العكس عمل فردى . نابع عن إرادة . وذكاء . بحيث يمكن أن نميز فيه :

أولا : المجموعات التى بها يستخدم الفرد المتكلم رموز اللسان وقوانينه للتعبير عن فكره الشخصى .

ثانياً : الآلية النفسية المادية Psycho-pheysique التى تسمح له بإخراج هذه المجموعات إلى حيز السماع .

ومن الواجب أن نلاحظ أننا هنا قد عرفنا (أشياء) . لا (كلمات) . فليس لنا إذن أن نتهيب من بعض المصطلحات الغامضة التى لاتتقابل مابين لسان وآخر . ففى الألمانية نجد مثلا الكلمة Sprache وهى بمعنى (لسان Langue) . و (لغة Langa ge) ، ونجد كلمة Rede وهى تقريباً فى مقابل كلمة (كلام Parole) . ولكن يضاف إليها المعنى الخاص لكلمة (خطاب Discours) .

أما اللاتينية فإن كلمة Sermo تعنى (اللغة ، والكلام) على حين أن كلمة : Lingua تعنى (اللسان) . وهكذا لاتقابل كلمة أخرى فى مفهومها المحدد . ولذلك نرى أن أى تعريف يوضع بصدد (كلمة) أيةً كانت عديمُ الجدوى . فإن من سوء المنهج أن نبدأ بالكلمات لتعريف الأشياء .

ونعود الآن إلى تلخيص صفات اللسان فهو :

أولا : موضوع محدد فى مجموع غير مترابط من أحداث اللغة . ومن

الممكن أن نحله فى قسم محـدد من الدائرة . حيث تستدعى الصورة السمعية إلى الفـكرة . واللسان هو الجزء الاجتماعى من اللغة . فهو خارج الفرد . الذى لا يملك إبداعه . ولا تعديله . وهو لا يوجد إلا بمقتضى نوع من العقد الموقع بين أعضاء الجماعة .

والفرد من ناحية أخرى بحاجة إلى أن يتلمذ للسان حتى يتعرف أثره . فالطفل لا يتمثله إلا شيئاً ، فشيئاً . لأنه شىء متميز الوجود عن الإنسان . لدرجة أن الإنسان العاجز عن استعمال الـكلام يحتفظ باللسان . شريطة أن يفهم العلامات الملفوظة التى يسمعها .

ثانياً : واللسان المتميز عن الـكلام موضوع يمـكن أن يدرس على حدة . فنحن لم نعد نتـكلم الألسنة الميتة ، ولـكننا نستطيع أن نمثل لأنفسنا بناءها اللغوى . وعـــلم اللسان ليس فقط مستغنياً عن العناصر الأخرى فى اللغة . بل إنه ليس من الممكن أن يـكون إلا إذا استبعدت منه هذه العناصر .

ثالثاً : وعلى حين أن اللغة مفكـكة العناصر ، نجد أن اللسان على هذا النحو المرسوم ذو طبيعة متوافقة ، فهو نظام من العلامات ، جوهره هو اتحاد المعنى بالصورة الصوتية . وطرفا العلامة ذوا طبيعة نفسية .

رابعاً : واللسان ، كالـكلام ، موضوع ذو طبيعه محسوسة ، وتلك ميزة كبيرة تخضعه للدراسة ، والعلامات اللغوية ليست تجريدات ، لـكى تـكون نفسية فى جوهرها .

أما المعانى المتداعية التى أقرها الاتفاق الجماعى ، والتى تـكون فى مجموعها

(اللسان) فإنها أحداث واقعية مركزها المخ ، وفضلا عن ذلك فإن علامات اللسان ذات طبيعة محسوسة ، ويمكن للكتابة أن تثبتها فى صور متفق عليها ، على حين أنه ربما كان مستحيلا أن نصور تفاصيل أحداث الكلام ، ذلك أن تصويت كلمة مهما صغرت يمثل مالا يحصى من الحركات العضلية ، التى يصعب إلى أقصى حد معرفتها ، أو تصويرها .

أما فى اللسان ، فعلى العكس ، لا توجد غير الصورة الصوتية ، وهى قابلة لأن تتجلى فى صورة مرئية ثابتة ، لأننا ، إذا ما غضضنا النظر عن حجم تلك الحركات الضرورية لتحقيقها فى الكلام ، فإن كل صورة صوتية ليست سوى عدد محدود من العناصر أو الفونيمات ، قابلة بدورها لأن تستدعى بعدد مقابل لها من علامات الكتابة .

هذه الإمكانة ، المتمثلة فى إثبات ما يتعلق باللسان ، هى التى تجعل من القاموس ، والقواعد ، ممثلين أمينين له .

وإذا كان اللسان مستودعا للصور الصوتية ، فإن الكتابة هى الشكل الملموس لهذه الصور .

* * *

وإلى هنا ينتهى حديث دوسوسور ، الذى ترجمناه كاملا ، وربما لأول مرة ، وأحسب أن رأيه القائل بالتفرقة بين اللسان والكلام قد اتضحت معالمه تماما ، وهى تفرقة من قبيل تحديد المصطلحات ، وقد يرى بعض الباحثين الأخذ بها ، أو رفضها ، ولكنها على كل حال ذات طابع علمى يقوم على جملة من الحقائق والتصورات الأكاديمية ، ولسوف نعرض بعد قليل لما وجه إلى هذه الآراء من نقد يقوم على وجهات نظر مختلفة إلى الموضوع .

وقد اقتصر الحديث حتى الآن على تحديد مفهوم (اللسان) من حيث هو

أصوات ، وعلامات لهذه الأصوات ، مصطلح عليها ، دون أن نتعرض لمفهوم آخر للسان أو اللغة ، خارج هذا النطاق : بل هى عدة مفاهيم . فنحن نقول : لغة الإشارة ، ونقصد بها شيئا آخر غير الأصوات ، بعض الحركات المصطلح على مدلولها اجتماعيا ، بالمعنى العام لكلمة (مجتمع) ، أو بالمعنى الخاص الذى يمارسه الخرس فى مجتمعنا ، فلولا ما يبدون من حركات ذات دلالات خاصة لما استطاعوا العيش مع جماهير الناطقين .

ونقول : لغة الشفرة ، ونقصد بها التفاهم بوساطة أرقام ذات دلالات مصطلح عليها بين المتعاملين بهذه الأرقام . بغية إخفاء أغراضهم عن الآخرين.

ونقول : لغة العيون ، ونقصد بها تأثير النظرة حين تتجه إلى مرئى تحمل إليه رغبة أو رهبة ، ينفعل بها من يتابعها .

ونقول : لغة الزهور ، ونقصد بها ما تحمله ألوانها وعطورها من إيحاءات شعرية ، مفرحة ، أو محزنة ، أو موحية .

ولكن العقل الإنسانى ، برغم اعتماده لهذه الوسائل كلها فى تبادل الفهم والتعامل ، لا يعد ذلك كله إلا وسائط يجب أن تترجم إلى النظام المصطلح عليه من العلاقات ذات الدلالة ، حتى يمكن أن يستجيب لما يوجه إليه ، أو يشعر به من خطاب سمعى . أو بصرى ، أو ذهنى ، أو وجدانى .

نقد لرأى دوسوسور فى اللسان والكلام

هذا الذى تقدم من رأى دوسوسور فى التفرقة بين اللسان والكلام لا يسلم له بإطلاق ، فمن الباحثين من تتبع هذا الرأى ناقداً له ، ومدللا على عكسه . وفى مقدمة هؤلاء تلميذه وأحد جامعى كتابه ، شارل بالى Charles Bally الذى يرى أن أستاذه قد تغالى فى اعتبار اللسان أمراً ذهنيا ، ناتجا عن العقل الجمعى .

وإذا كان دوسوسور قد اعتبر اللسان مجموعة من الصور اللفظية المختزنة فى الذهن الجماعى ، وأنها ذات قيم موحدة عند جميع الأفراد ، على حين أن الكلام أمر فردى يكون المادة التى يبنى منها اللسان ، وذلك بنوع من الاتفاق الجماعى ، إلى آخر تلك الأفكار المستوحاة من مذهب دوسوسور عن (العقد الاجتماعى) - إذا كان هذا هو مذهب دوسوسور فإن تلميذه كان يرى أن هناك صراعا مستمراً بين الكلام الذى هو أمر فردى ، وبين اللسان .

وإذا صح أن اللسان أداة للتفاهم الجمعى فإن الكلام نشاط فردى لغوى يعالج الحياة الواقعية للفرد ، وهو وحده الذى يعبر عن الواقعية والعاطفية ، بعكس اللسان الذى ليس سوى إمكانات تعبيرية[1] ، يعنى بمفهوم دوسوسور .

---

(١) اللغة بين الفرد والمجتمع ص ١٩ .

ولنأخذ على ذلك مثلا الكلمة (يضرب) ، فإن لها معنى قاموسيا هو إيقاع الضرب والأذى : أو السير فى الأرض جريا وراء أهداف معينة ، وهذا هو الوجود اللغوى للكلمة (يضرب) .

غير أن الفرد المتكلم يستعملها فى معان لا علاقة لها بالمعنى القاموسى ، ومن ذلك : التعبير (يضرب التليفون) ، أى : (يدير أرقامه) ؛ والتعبير (الحظ يضرب معاه) بمعنى (يحالفه) ، والتعبير :(يضرب ٥ × ٧) ، أى :(يضاعف الرقم [٥] سبع مرات) .. وكل هذه معان أحدثها تصرف الأفراد فى الكلمة خارج المعنى المعجمى .

وقد شبه اللغوى جسبرسن الكلمة اللغوية فى وجودها القاموسى بالعملة فى خزانة المصرف ، لها قوة التعامل ، ولكنها لا تمثل تفاعلا واقعيا ، أما الكلمة المنطوقة فى وجودها الكلامى فهى عملة نشيطة لها قوة شرائية واقعية ، ولذلك يحدث لها ما يحدث للنقود الكثيرة التداول فى أيدى الجماهير من تغيير وتبديل وتحريف ، ولكل هذا أثره على اللغة على مر الزمان(١) .

ويتعرض جسبرسن لآراء دوسوسور بالنقد ، فيوافقه أولا على أن للفرد تأثيره فى اللغة ، حين يجرى قياسا معينا ، فيؤثر بذلك على المفردات والصيغ ، ثم يشيع هذا التأثير فى نطاق الجماعة ، ولكنه يرى أن هذا الأمر ليس جديداً على التصور ، فإن علماء الاجتماع يرون أن جميع الأحداث

---

(١) السابق .

الاجتماعية تبدأ فردية ، ثم يتسع نطاقها شيئا فشيئا إلى أن تصطبغ بالصبغة الجماعية .

وأما قوله بأن (الكلام من نتاج الأفراد على حين أن اللغة من نتاج المجتمع) ، فقول مردود . حيث إن الجماعة ليست سوى مجموعة من الأفراد ، ولا يمكن بحال أن نعتبرها شيئا آخر ، ودوسوسور فى هذا الرأى ناقل عن بعض علماء الاجتماع القائلين بوجود الجماعة وجودا يختلف عن وجود الأفراد ، وبأنه إذا صح أن يقال : إن للفرد (عقلا فرديا) فإن للجماعة كذلك (عقلا جماعيا) .

والحق أن العقل خاصة توجد للفرد ، لا للجماعة ، وأن ما نراه من اختلاف بين تصرف الفرد حين يكون وحده ، وحين يكون بين مجموعة من الأفراد — هو فى الحقيقة اختلاف ناتج عن الظروف التى تواجهه . كذلك لا يعدو الاتفاق فى العاطفة أو الرأى فى جماعة من الجماعات أن يكون مجرد اتفاق فى حكم يصدر عن عدة عقول فردية قد تأثرت بظروف ودوافع متشابهة[1] .

وينتهى جسبرسن من نقده لدوسوسور إلى القول بأن علاقة اللسان بالكلام شبيهة بعلاقة معنى الكلمة التى فى صيغة الجمع بمعنى الكلمة التى فى صيغة المفرد ، فدلالة الكلمة (خراف) تتحدد علاقتها بدلالة كلمة (خروف) فى أن معنى الأولى هو أنها تدل على (الخروف الأول)، و (الثانى)، و(الثالث)،

---

(١) ٢١ .

على التوالى ، واللسان كذلك هو كلام الفرد رقم (١) ، والفرد رقم (٢) ، والفرد رقم (٣) .. إلى آخره .

وإذن فليس اللسان فى حقيقة الأمر شيئا آخر غير الكلام ، بل هو الكلام فى ذاته ، ولكن باعتبار آخر . ومفردات اللسان هى جميع ما ينطق به كل أفراد الجماعة اللغوية من ألفاظ تختلف فى درجة شيوعها ، ومن أصوات ، وكيفيات للنطق (١) .

على أن هذا النقد الذى وجهه جسبرسن لرأى دوسوسور لا يعنى أن رأى هذا الأخير قد انتهى ، الآن ، فما زال رأيه رغم كل شىء ذا قيمة منهجية ، إذ أنه فى كل بحث لغوى حديث ينبغى الفصل بين مستوى كلام الأفراد ومستوى لسان الجماعة ، وتبدو هذه الملاحظة جد خطيرة إذا ما لاحظنا المسافة التى تفصل بين العامية والفصحى فى العربية مثلا ، إذ هما تختلفان فى أمور كثيرة لا مفر من اعتبارها عند البحث ، فضلا عن أن بحوث علم اللغة لا تتجاهل حتى الفروق الفردية .

ثم إنه على فرض أن المسافة ضئيلة القدر بين العامية والفصحى فى لغة ما فإن من المبالغة أن يقال : إن مفردات اللسان هى جميع ما ينطق به كل أفراد الجماعة ـ على ماذهب إليه جسبرسن فمن المؤكد أن اللسان أكبر من الناحية القاموسية ، من مجموع مفردات الجماعة اللغوية ، فهذه الجماعة لا تستعمل من المفردات المودعة فى القواميس إلا نسبة ضئيلة ، لا تتجاوز ٥٪ من مجموع المواد ، ولو اقتصر نظرنا إلى اللسان على هذه الكمية المحدودة لفقدنا جوهر المشكلة ، لأن اللسان قبل أن يكون ملكا للجماعة ـ هو ملك لأجيال التاريخ

---

(١) السابق ٢٤ ـ ٢٥ .

على امتداده ، وهذا هو السر فى زيادة رصيد اللسان من المفرادات على ما تستعمله الجماعه فعلا ، ومع ملاحظة أن القدر المستعمل يختلف من عصر إلى عصر ، ومن مكان إلى مكان .

وعلى أى حال فليس من المقبول أن نفصل فصلا صارما بين اللسان والكلام ، كما أنه ليس من صواب المنهج أن ندمجهما إدماجا تاما ، فإن دراسة الكلام تفيد اللسان ، كما أن دراسة اللسان تفيد الكلام ، وخير لنا أن نتناولهما بمنهج متكامل يبرز لأعيننا الحقيقة اللغوية كما ينبغى تناولها .

مكان الكتابة فى أحداث اللغة

وضح إذن من تحديد دوسوسور لمعنى اللغة أنها تشمل كل وسائل التفاهم والاتصال الإنسانى ، بما فى ذلك الأصوات اللغوية ، والإشارات ، وتسجيل الأصوات فى رموز كتابية ، أو فى صور موحية .

ولقد عرفت الإنسانية طرقا عدة لتسجيل أفكارها مستخدمة الألوان والخطوط . فكانت المحاولة الأولى للكتابة على عهد قدماء المصريين ، وكان دافعهم إلى اختراع الكتابة حرصهم على إبقاء أفكارهم مدة أطول من الزمان ، من جهة ، وحرصهم أيضاً على نقل أفكارهم إلى أماكن أبعد من مواطنهم ، من جهة أخرى .

ولا شك أن الكتابة كفيلة بتحقيق هذين الهدفين ، بعكس الكلام المنطوق الذى يتلاشى عقب صدوره من فم صاحبه .

وربما كان موقف الكاتب المصرى القديم لايختلف كثيراً عن موقف فنان يريد تسجيل خواطره ، فهو يرسم تفاصيل منظر طبيعى ، أو يستلهم من مشاهداته فكرة للوحة معبرة ، ومن جزئيات اللوحة ، ومن مجموعها يقرأ الناظر أفكار الفنان ، ويتعمق فى أسرار نفسه .

وهكذا كان موقف الكاتب المصرى القديم حين أراد أن يعبر عن أفكاره ، مع اختلاف الظروف الحضارية التى عاشها الفنان القديم ، فهو من هذه الناحية أعظم إبداعاً من أى فنان معاصر ، لقد كان يحاول ابتداء أن يوجد شيئاً لا سابقة له ، وأن يخترع طريقة لتسجيل الأفكار ، فهداه تفكيره إلى التعامل مع الأشياء جملة ، فإذا أراد أن يعبر عن حيوان معين

مثلا رسم صورته ، وحين شاعت هذه الطريقة ، وتعارف الناس على استعمالها ، بدأ يفكر فى تطوير وسيلته لتسجيل موجودات أخرى لا صورة لها فى الطبيعة . فهو يرسم فكرة الحرب ، والسلام ، من خلال رسم لوازم الحرب ولوازم السلام ، ولكنه كان فى كلتا الحالين يتعامل مع موضوع الكتابة بطريقة إجمالية ومباشرة ، فهو يرسم (البقرة) مثلا لأنه يريد تسجيلها هى ، واستحضار صورتها عند الضرورة ، دون أن يتعلق غرضه برسم اسمها ، أو بالتعرف إلى حروف هذا الاسم ، فلم يكن تحليل الأصوات ، ووضع رموز لها — من معارف البشرية آنذاك ، رغم أن ارتباط الاسم بالمسمى أمر مقرر فى كل لسان أو عرف لغوى . ولقد مرت الكتابة بعد ذلك فى أطوار متعددة إلى أن انتهت إلى استخدام الرمز للصوت المفرد منفصلا عما عداه من الأصوات ، ودون أن يرتبط بالمسمى ، أو بصورته . يقول الأستاذ حفنى ناصف : « والتحقيق أن الخط من وضع البشر ، وأنه لم يصل إلى ماهو عليه الآن إلا بعد أن قطع أربعة أدوار :

الأول : الدور الصورى المادى .

الثانى : « « المعنوى .

الثالث : « « الحرفى .

الرابع : « الحرفى الصرف .

وذلك أن الناس فى أول الأمر كانوا يرسمون صور الماديات للدلالة عليها ، فإذا أرادوا أن يدلوا على معنى الأسد رسموا صورة أسد وإذا قصدوا الدلالة على معنى النخل رسموا صورة نخلة ، وإذا راموا الدلالة على معنى المعبد ، رسموا صورة معبد ، وهلم جرا . . . ولكن الكتابة بهذه الطريقة ناقصة ،

لأن من المدلولات مالا صورة له مادية ، كالخوف والحزن والفرح ، فبدا لهم بعد زمن أن يدلوا على المعانى التى لاصور لها بصور لوازمها كأن يرسموا الدواة والقلم للدلالة على معنى الكتابة ، والشعر المسدول للدلالة على الحزن ، وضخامة الجسم للدلالة على غنى صاحبه . . . . ثم ترقوا إلى الدور الحرفى بواسطة الصور ، فاصطلحوا على استعمال صور للدلالة على الحروف التى فى صور أسمائها . . . . ثم اختصروا تلك الصور مع مرور الأيام . حتى صارت علامات لاتدل إلا على أصوات الحروف ، كما هو الشأن الآن[1] .

ويخلص حفنى ناصف من هذا التصوير السريع لمراحل الكتابة الإنسانية إلى القول بأن أقدم حلقة معروفة فى سلسلة التطور التاريخى للكتابة هم أهل مصر ، وبعدهم الفينيقيون ، ويليهم الآراميون وأصحاب المسند ، وقد وصل هذا الخط من اليمن والآراميين ، إلى الحيرة والأنبار ، ومنهما جاء لأهل الحجاز ، حيث انتشر فى صورة الخط العربى .

وبهذا يربط المؤلف وجود الخط العربى بحركة التاريخ الإنسانى فى هذا الاتجاه .

إن الذى ينظر الآن إلى استعمال الخط فى تسجيل اللسان ، ويسر هذا الاستعمال مع كثرة اللغات والرموز المستخدمة فى كتابتها بصورة هائلة — قد لايذهب ذهنه إلى هذه البداية العجيبة للنشاط الإنسانى فى اختراع الكتابة ، ولعله لايتصور أن هذه المهارة الإنسانية التى أصبحت فيصلا بين الجهل والعلم ، وبين الرقى والانحطاط ، بل لقد أصبحت مقياس الحضارة والتقدم فى عصرنا — كانت فى أصل نشأتها فيصلا بين السحرة وغيرهم من العامة ، فقد حملت

---

(١) تاريخ الأدب ، أو حياة اللغة العربية — الكتاب الأول ص ٣٥ مطبعة جامعة القاهرة ١٩٥٨ .

الكتابة هذه الصفة ردحاً طويلا من الزمن ، فكانت رقى وتعاويذ سحرية يظن الناس أن لها فاعلية النجاح أو الشفاء أو الضرر ، وكان كتاب تلك العصور من السحرة ، ولبست معظم الكتابات ثوباً دينياً خالصاً [١] .

ومن المؤكد أن أكثر الكتاب فى العصر القديم كانوا فنانين يجيدون الرسم ، والنقش ، والحفر ، كما كانوا يتمتعون بخيال واسع ، مكنهم من تطوير الكتابة ، كأداة للتعبير ، إلى جانب كونها وسيلة للتسجيل ، لقد كان الرمز فى بدايته محدود المعنى أو المدلول ، ولكنه بعد حين أصبح متعدد المعنى ، وهو تطور لوظيفة الكتابة ، أو لقيمة الرمز فى إطار الحقيقة والمجاز ، فصورة قرص الشمس كانت فى البداية تعنى الشمس ، ولكنها بعد حين أصبحت تدل على النور ، والبريق ، والنهار ، وصورة العين كانت تدل على النظر ، ولكنها بعد حين دلت على السهر وعلى العلم ، أى أن العلامة الصورية قد حملت عدة مدلولات ذات أصوات مختلفة ، وهى مرحلة كانت ضرورية لإعادة النظر فى توحيد مدلول الرمز أو العلامة ، ليرتبط بقيمة صوتية واحدة ، وبذلك تصبح الكتابة حرفية بدلا من كونها صورية معنوية ، ولعل الكتابة العربية قد احتفظت بأثر من آثار هذه المرحلة التى ارتبط خلالها الرمز الكتابى بالصورة الماديه ، وذلك فى رسم رمز (ع) ، فهو صورة حقيقية للعين الباصرة ، وهو أيضاً يحمل اسمها . والعجيب أن هذه الصورة ، تقريباً ، هى صورة العين فى كل الخطوط القديمة ، وربما كان ذلك حتى عصر الكتابة الهيروغليفية ، أقدم الكتابات الإنسانية على الإطلاق.

---

(١) مجلة عالم الفكر ـ المجلد الثانى ـ العدد الثالث ـ دكتور عبد الحميد زايد ـ ص ٧٨٥

ويعتبر انفصال الكتابة عن الدلالة اللغوية أخطر تطور [illegible] ن ، حرره من الخضوع لافتنان الأفراد ، وخلع عليه قيمة موضوعية ثابتة ، حين ارتبط الرمز بالصوت ، مهما كانت دلالته رفيعة أو وضيعة ، وانفصل عن الصورة والمعنى .

غير أن هذه الرموز التى أصبحت تمثيلا للأصوات المنطوقة قد خضعت فى استعمال الكتاب لنوع من التنظيم الذى فرض نفسه بفعل التطور عبر القرون ، فقوم يرون أن الكتابة لابد أن تسجل كل الأصوات المنطوقة ، وآخرون يرون أن الكتابة رمز ، وطبيعة الرمز الاختصار ، والاعتماد على الذكاء . وهكذا نشأ نظامان فى الكتابة الإنسانية :

١ — النظام المصرى السامى الفينيقى العربى ، الذى يكتفى بتسجيل الصوامت دون الحركات

٢ — النظام الإغريقى الذى اقتبس النظام السابق ، وأضاف إليه الحركات ، وبذلك تكون اللغة الإنسانية قد اتخذت طريقين فى علاقتها بالكتابة .

ولقد يتجلى هذان النظامان حين نرى كلمة واحدة مكتوبة على كلتا الطريقتين ، فى مثل اللفظة : (كتب) بالنظام السامى الأول ، وKataba بالنظام الإغريقى الثانى .

فالطريقة الأولى تكتفى بثلاثة رموز هى رموز الصوامت ، وتترك رموز الحركات لتقدير القارىء ، على ما يقتضيه السياق ، وأما الطريقة الثانية فهى

لا تدع شيئا لتقدير القارىء ، بل تضع تحت عينيه كل العناصر النطقية ، من صوامت وحركات ، وما عليه إلا أن ينطق ما يجد أمام ناظريه .

ولقد يبدو من السذاجة أن نفضل أحد النظامين على الآخر ، فكل منهما منهاج سار على دربه جماعات وشعوب كثيرة فى مراحل التاريخ المختلفة ، وربما فيما قبل التاريخ ، ومن الخطأ أن نصدر من موقعنا الزمنى حكما على نظام اكتملت عناصره عبر الأجيال ، وأصبح قادرا على أداء القيمة اللغوية المنوطة به دون إخلال .

غير أن من الضرورى أن نشير إلى أن لكل منهما محاسنه وعيوبه ، التى تظهر لأول وهلة ، فإذا كان النظام الإغريقى يقدم الحدث اللغوى بعناصره المختلفة شبه كامل ، فإنه لا يترك للذهن الإنسانى فرصة لمحاولة التدخل فى اختيار الصيغة المناسبة للسياق كما هى الحال فى النظام السامى ، وهو عيب غير جوهرى فى نظرنا .

وإذا كان النظام السامى قد وفى هذا الاعتبار باقتصاره على الصوامت ، وهو طابع يحقق اقتصاداً كبيرا فى استخدام الرموز فإنه قد تعرض لحالات من الاختلال والتحريف نتيجة هذا الاختصار الذى يبدو أحيانا مخلا ، ولاسيما إذا كان القارىء ذا قدر محدود من الذكاء وحسن التقدير .

والعيب المشترك بين النظامين يمكن أن نثبته فى ثلاثة جوانب :

الجانب الأول : أن هناك فرقا كبيرا بين الحدث اللغوى المنطوق ، وصورته المكتوبة ، فلا شك أننا ننطق من الأصوات أضعاف الرموز الكتابية ، فكأن رموز الكتابة على أية حال ـ مجرد إشارة موجزة جدا

إلى الأصل المنطوق فعلا ، وهذا الحديث يشير فى بعض تطبيقاته إلى الخاصة الفونيمية للكتابة اللغوية .

فالرمز الكتابى هو دلالة مرسومة على مجموعة من الأصوات المنتمية إلى فونيم واحد ، أو وحدة صوتية واحدة ، ومن أمثلة ذلك أن رمز (ن) هو رسم يشير إلى قيمة صوتية تتخذ أشكالا متعددة فى اللسان العربى ، بحسب السياقات التى تتضمن صوت (النون) ، فقد تكون النون شفوية إذا وقعت بعدها مباشرة (باء) فى مثل : عنبر ، فتنطق (عمبر) ، وترسم (عنبر) .

وقد تكون النون شفوية أسنانية إذا وقعت بعدها مباشرة (فاء) مثل (أنف) ، وتنطق النون بوضع الشفة عند الثنايا العليا ، مع ذلك لا يتغير رمزها الكتابى ، وهكذا لو تتبعنا حالات النون مع ما يليها مباشرة من الأصوات كالجيم ، والكاف ، والقاف ، ومع ذلك فإن رمزها الكتابى لا يتغير ، ومع ملاحظة أن النون المجردة هى نون أسنانية لثوية ، وكذلك الحال فى صوت الجيم الذى يرسم بصورة واحدة ، وينطق بصور متعددة .

ومن هذه الصور ما يسمى بالجيم الفصحى التى يختلف علم الأصوات فى تحديد ماهيتها ، وهل هى الجيم القاهرية ، أم هى الجيم المركبة (المعطشة) ، أم أنها كانت تنطق بصورة قريبة من هذين ، فيكون دورها هو تحديد الصورة التقريبية التى ربما كان العرب قديما ينطقونها ؟ — كل ذلك من باب الافتراض ، وإن دل الرمز الواحد على هذه الأشكال جميعا .

وهناك رمز كتابى يدل على صوت السين (س) ، ورمز آخر يدل على

صوت الصاد (ص) ، ولكن بعض الصيغ يقتضى رسم صوت الصاد برمز السين فى مثل (مسيطر) التى تنطق (مصيطر) ، وقد لجأ الرسم القرآنى إلى استخدام الصاد أحياناً فى هذه الكلمة ، وفى كلمة (بسطة) التى قد تكتب (بصطة) .

ولا ريب أن انطباق الرمز الكتابى على الرمز الصوتى هو أمل لكل لغوى ، ولكن محاولات اللغويين لا يمكن أن تحققه إلا فى حدود الدراسة العلمية ، فى إطار مايسمى بالكتابة الفونولوجية .

يقول دوسوسور فى هذا الصدد : « يريد اللغوى أن يجد بين يديه قبل كل شىء وسيلة لتمثيل الأصوات المنطوقة التى تنفى كل غموض ، والواقع أن هناك نظما كتابية لا تحصى قد اقترحت ، فماذا تكون مبادىء كتابة فونولوجية حقة ؟

إنها يجب أن تستهدف تمثيل كل عنصر فى السلسلة المنطوقة برمز مستقل، ولكن أحداً لم يلتزم دائما بهذا الهدف ، فمثلا نجد أن فقهاء اللغة الانجليز ، المهتمين بالتصنيف أكثر من التحليل ، يستخدمون لبعض الأصوات رموزا مركبة من حرفين أو ثلاثة أحرف ، وفضلا عن ذلك فإن التفرقة بين الأصوات الانفجارية ، وبين الأصوات الاحتباسية يجب أن تتم بصرورة دقيقة ، وهو ما أكدناه دائما .

فهل هناك فرصة لنستعمل أبجدية فونولوجية فى مكان الكتابة العرفية؟ إن هذا السؤال الهام سرعان ما يتحول إلى هباء ، ذلك أننا نرى أن الكتابة الفونولوجية يجب أن تبقى فى خدمة اللغويين وحدهم ، إذ كيف نطبق نظاما موحدا للكتابة على الانجليز ، والألمان ، والفرنسيين . . . إلخ . . . ؟

وبرغم هذا فإن أية أبجدية تصلح للتطبيق على جميع اللغات توشك أن تصير مكتظة برموز الضبط ، فإذا تجاوزنا فى حديثنا الشكل المحزن الذى

قد تبدو به صفحة فى نص من هذا القبيل ـ فإن من الواضح أن الحرص على التحديد سوف يجعل هذه الكتابة تطمس ما تريد إيضاحه ، وبذلك تضلل القارىء .

وهذه العيوب لن يقابلها على الناحية الأخرى ميزات كافية ، ولذلك نرى أن الدقة الفونولوجية غير مرغوب فيها خارج نطاق العلم .

وهناك أيضا مسألة القراءة ، فنحن نقرأ بطريقتين : فالكلمة الجديدة أو المجهولة يتهجاها القارىء حرفا بعد حرف ، ولكن الكلمة المستعملة والمألوفة تحتويها عيناه من أول وهلة ، بصرف النظر عن الحروف التى تؤلفها ، ذلك أن صورة هذه الكلمة تكتسب لدينا قيمة كتابية فكرية **Idéographique** وهنا يمكن للإملاء التقليدى أن يؤمن للكلمة حقوقها .

إن كل ما نتمناه هو أن نرى الكتابة المستعملة وقد تخلصت من عيوبها الكبيرة ، وإذا كان من المفيد فى مجال تعليم اللغات أن نستخدم أبجدية فونولوجية ، فليس من الممكن مطلقا تعميم استعمالها(١) .

وحديث دوسوسور واضح كل الوضوح ، فهو يرفض كل الرفض أن يحاول اللغويون إحلال نظام كتابى محل نظام آخر ، على سبيل الإصلاح ، وإن لم يستبعد إدخال بعض الإصلاحات الجزئية على النظم العرفية للتخلص من عيوبها الكبيرة .

وهذا الحديث من دوسوسور يصلح أيضاً لنذيل به الجانبين الآخرين اللذين يسجلان نقص النظام الكتابى العرفى سواء كان مصريا ساميا أم إغريقياً أوربيا .

---

(١) دوسوسور : **Cours de Linguistique générale** ـ ص ٥٦، ٥٧

الجانب الثانى : أن اللغة فى حركة مستمرة ، وأن الصور النطقية التى كان السلف ينطقونها تتطور دائما فى اتجاه معين يعرفه اللغويون ، ولما كانت الصورة الكتابية ثابتة مستقرة على حين تتغير دائما الصورة النطقية — فإن المسافة تتسع بينهما دائما بمرور الزمن ، وبخاصة فى اللغات التى لاتتمسك كثيراً بماضيها ، كاللغات الأوربية ، أما اللغة العربية فقد نجد أثر الزمن ضعيفاً فى هذا الجانب نتيجة وجود القرآن الكريم ، ومن أمثلة التطور فى العربية تحول المقطع ay إلى حركة ممالة طويلة فى مثل : (بَيْت) التى صارت تنطق : (بيت) ، بالكسرة الممالة الطويلة (beet) ، وتحول المقطع aw إلى ضمة ممالة طويلة فى مثل : (قَوْم) التى تنطق (qoom) . فالنطق قد تغير بمرور الزمن ، ولكن الصورة الكتابية هى هى ، رغم اختلاف النطق عنها بصورة جوهرية .

والمهم أن الكتابة ليست هنا سوى رمز تذكارى لما كان عليه السلف فى نطقهم . ولكنه لايعبر عن النطق الواقعى إلا بواسطة السياق أو القرينة التى تعين على تحديد الصورة المقصودة من الرسم الكتابى ، ومهمة القرينة هى تفسير المراد من الرمز الكتابى .

ولو أننا انتقلنا إلى الرسم المصحفى فى القرآن ، فسوف نجد أن الرسم لايمثل بذاته القيمة النطقية أحياناً ، فكلمات مثل : (الصلوة ، والزكوة ، والمشكوة) لايمكن أداؤها من واقع الكتابة أداء صحيحاً ، بل لابد من تلقى النطق الصحيح من فم المقرىء ، وهو ما أوصى به العلماء دائما : (لاتأخذ العلم من صحفى ، ولا القرآن من مصحفى) .

ولذلك يرفض دوسوسور شهادة الكتابة على الواقع اللغوى ، ويرى

أن الكتابة العرفية كثيراً ماتقود إلى الخطأ والضلال ، وأنه لايعصم من هذا الضلال إلا أن تكون الكتابة مفسرة ، محددا المراد منها بوساطة ماقدمه المعاصرون لها من شروح وأوصاف .

ولنقرأ الآن ما كتبه دوسوسور فى هذا الصدد ، قال: « من الخطأ إذن أن نعتقد — بعد أن تبينا الطابع المضلل للكتابة — أن يكون أول شىء نفعله هو أن نصلح الإملاء ، إن الفائدة الحقيقية التى يسديها إلينا علم الفونولوجى هى أنه يسمح لنا باتخاذ بعض المواقف فى مواجهة هذه الصيغة المكتوبة التى ينبغى أن نمر بها لنصل إلى اللغة ، فشهادة الكتابة لاقيمة لها إلا أن تكون مفسرة ، أى : أننا أمام كل حالة يجب أن ننصب النظام الفونولوجى للغة المدروسة ، أعنى : قائمة الأصوات التى نستعملها . والحق أن كل لسان يعتمد على عدد محدود من الفونيمات المتنوعة ، وهذا النظام هو الواقع الوحيد الذى يهم اللغوى ، وليست الرموز الكتابية فى هذا النظام سوى صورة ينبغى تحديد ملامحها ، وتختلف صعوبة هذا التحديد باختلاف اللغات ، واختلاف الظروف .

فإذا كان الأمر يتعلق بلسان ينتمى إلى الماضى فإننا نقتصر فيه على معطيات غير مباشرة ، فما هى حينئذ المصادر التى نستخدمها لإقرار هذا النظام الفونولوجى ؟ .

أولا : هناك الأدلة الخارجية ، وهى قبل كل شىء شهادة المعاصرين الذين وصفوا الأصوات ، كما وصفوا نطق عصورهم . . بيد أن هذا المصدر المعلومات ضعف الثبوت ، لأن هؤلاء المؤلفين لم يكن لديهم أى منهج فونولوجى ، فجاءت أوصافهم بمصطلحات اتفاقية ، دون دقة علمية ،

ولذلك فإن شهادتهم تحتاج أيضاً إلى تفسير . . . .

ثانياً : وهناك أيضاً الأدلة الداخلية المستقاة من قياسية التطورات الصوتية ، فإذا كان مطلوباً تحديد قيمة حرف معين (مكتوب) فمن الضرورى أن نعرف كيف كان الصوت الذى يمثله ينطق فى عصر مضى ، وقيمته الحالية [كما نجد فى العربية الفرق بين نطق الضاد أو الظاء ـ القديم ، ونطقهما الحديث] .

وقد تستقى أيضاً هذه الأدلة الداخلية من تنوع رسم الكلمة عبر العصور ، [كالخلاف بين الإملاء القديم فى المصحف ، والإملاء الحديث] ، كذلك تعتبر نصوص الشعر وثائق ثمينة فى معرفة النطق ، فتبعا للنظام الذى يقوم عليه نسيج الشعر ، من عدد المقاطع ، أو الكمية ، أو تطابق الأصوات فى الجناس والسجع والقافية — هذه الآثار تقدم لنا معلومات عن هذه النقاط المختلفة . . . الخ . . . الخ . . .[1]

مامعنى هذا كله ؟ . . .

معناه أن دوسوسور يرى أن الكتابة لا يمكن أن تستقل بأداء الدلالة الكاملة للقيم الصوتية أو النطقية التى كانت للغة ما ، بل لابد من اللجوء إلى القرائن الأخرى لتحديد المقصود بالرمز المكتوب ، وإزالة ما يشوبه من غموض .

الجانب الثالث : أن تطور اللغة من عصر إلى عصر قد ترتب عليه ترسب صور كتابية تحتوى عناصر مكتوبة لاتنطق ، أو هى تنطق على

---

(١) المرجع السابق ص ٥٦ وما بعدها .

خلاف مرسومها ، وفى العربية من هذا القبيل شىء كثير ، فسقوط الألف من رسم اسم الإشارة (هذا) هو مما ورثته الكتابة الحديثة عن الكتابة القديمة ، وإثبات الألف الفارقة بين واو الجمع المتصلة بالفعل فى مثل (كتبوا) وعدم وجودها فى مثل (يرجو) ، هو أيضاً من المواريث الكتابية ، والفرق بين همزة الوصل والقطع فى الكتابة هو فرق موروث ، وإن كان له مايسوغه ، إلا فى رسم عبارة : (بسم الله) ، وهى فاشية على جميع الأقلام ، ومأخوذة من كتابة القرآن .

ويعتبر الرسم المصحفى فى هذا الجانب نموذجاً للظواهر الكتابية الموروثة ، التى يجب التزامها التزاما خاصا بالمصحف ، صونا له من التغيير ، أو التحريف ، وهو هدف جدير بالحرص والاحترام .

ومن أمثلته :

الرسم المصحفى	الرسم الحديث	الرسم المصحفى	الرسم الحديث
الصلوة	الصلاة	الأمين	الأميين
الزكوة	الزكاة	الحوارين	الحواريين
الحيوة	الحياة	الغاون	الغاوون
العلمؤا	العلماء	يبنؤم	يابن أم
الضعفؤا	الضعفاء	لسحران	لساحران

وقد تكون الظواهر غير القياسية فى الكتابة ناشئة منذ الرسم المصحفى ، ولكن الإملاء الحديث قد التزمها ، كما مضى فى أمثلة اسم الاشارة : (هذا - هذه — هؤلاء — أولئك) وكما فى رسم أداة الاستدراك (لكن) ، وكل ذلك ينطق بألف ، ولكنه لايرسم بها ، ومن هذا

القبيل كلمة (داود) ترسم بواو واحدة ، وتنطق بواوين .

ولقد يختلف تعامل الكتابة مع الكلمة باختلاف علاقتها بما بعدها ، فالأفعال المعتلة بالألف مثل (رمى - سعى - يسعى - يخشى) والكلمات مثل (ذكرى - صغرى - كبرى) ترسم جميعها بالياء ، وإن كانت تنطق ألفا ، فإذا اتصلت هذه الصيغ بضمير مضاف أو مفعول به مثلا - رسمت بالألف هكذا : (رماه - يخشاه - ذكراه - صغراه - كبراه ... إلخ ..) . ولذلك كله قواعد يعرفها أهل الإملاء . وكثيراً ما حاول المجمع اللغوى العربى تبسيط قواعد الرسم ، والتقريب بينها وبين النطق ، ولكن ذلك لا يمنع من الإبقاء على بعض الصور الكتابية لمجرد الاتباع .

وليس هذا الاختلاف فى كتابة بعض الكلمات فى رسمنا الحديث عنه لدى أجيال السلف - بغريب ، ولا هو مقتصر على اللغة العربية ، فقد تكون العربية أقل من الفرنسية فى هذا ، ومن الإنجليزية أيضاً .

وحسبنا أن ننقل هنا حديث اللغوى أوتوجسبرسن فى كتابة **Essential of Eng. Grammar** قال : « إن الطريقة التقليدية لكتابة اللغة الإنجليزية أبعد ما تكون عن الاتساق والثبات ، فمعرفتنا بأصوات الكلمة لا تساعد على تهجيها ، والعكس صحيح ، إذ لا نستطيع نطق الكلمة إذا عرفنا هجاءها . ويضرب لذلك الأمثلة التالية :

(١)	(٢)
Though	low
Through	true
Plough	now
Cough	off
Enough	cuff

تشترك كلمات المجموعة الأولى فى الحروف الأربعة الأخيرة من كل منها، ولكن هذه الحروف تنطق فى كل منها بطريقة مختلفة تماما ، فالحرفان الأخيران (gh) فى الكلمات الثلاثة الأولى ـ صامتان ، أما فى الكلمتين الأخيرتين فينطقان كما ينطق الحرف (F) . أما الحركتان (Ou) فإنهما تنطقان فى كل كلمة بطريقة مختلفة ، تشبه طريقة نطقهما فى الكلمة المقابلة فى المجموعة الثانية ... ويرجع جسبرسن أسباب هذه الفوضى الصوتية والإملائية إلى عوامل تاريخية ، كما يرجعه إلى تغير الأشكال الصوتية المستمر للكلمات ، ويعنى بذلك بقاء الأشكال المكتوبة للكلمات المنقرضة صوتيا ، بعد موتها بزمان طويل»[1] .

وإذن فالعربية ليست بدعا بين اللغات الحية ، حين يختلف رسم بعض كلماتها القديم عن رسمها الحديث ، فذلك بالعكس شأن اللغات ذات التاريخ والأصالة .

* * *

فإذا أضفنا إلى هذه الجوانب الثلاثة عجز الكتابة المطلق عن تسجيل مجموعة من الظواهر النطقية العامة ، كالنبر ، والتنغيم فى حالات الاستفهام ، والنفى ، والإنكار ، والتعجب ، والتحسر ، وهى وظائف ذات دلالة مباشرة فى الحديث اللغوى . أدركنا إلى أى حد تمثل الكتابة اللسان بكل خصائصه ، وهو فى تقديرنا تمثيل ضئيل ، يختلف قلة وكثرة بين اللغة المعاصرة واللغة

---

(١) نقلا عن نسخة خاصة من بحث للدكتور داود السيد حلمى عن المعجم الإنجليزى .

التاريخية التى تتمثل فى مؤلفات القدماء فقط .

يقول أنطوان مييه : « إن معظم الاختلافات فى النطق التى تتميز بها الجهات المختلفة ، والطبقات الاجتماعية المتباينة ، لا تظهر فى الكتابة . . . والكتابة لا تملك ما يملكه المتكلمون من مناسبة ، وحركات ، ونغمة فى الصوت توضح الكلام الملفوظ . . . ونحن نكوّن فكرة خاطئة عن لغة ملفوظة عندما نحكم عليها بصيغتها المكتوبة فقط . . فاللغة المكتوبة كثيراً ما تكون لغة خاصة لا علاقة لها باللغة المنطوقة[1] . . . إلخ . » .

إلى هذا الحد بلغ تصور اللغويين للمسافة التى تفصل الكتابة عن موضوعها ، وهو ما يمكن تلخيصه فى أن للغة وجوداً داخلياً فى الفكر ذا طبيعة رحبة ومرنة .

فإذا انتقلت هذه اللغة الفكرية إلى مستوى اللغة الصوتية المنطوقة تحققت بصورة مضغوطة، لعجز الأصوات والكلمات والتراكيب عن استيعاب كل ما يدور فى لغة الفكر الداخلية وأدائه بصورة دقيقة ، فإذا انتقلت اللغة المنطوقة إلى مستوى اللغة المكتوبة كان ذلك أشبه شىء بالاختزال ، إذ أن الرموز الكتابية عاجزة فى كل حال عن أداء كل العناصر النطقية كما سبق أن ذكرنا ، فهى مجرد رمز إلى كيان مختصر أيضاً ، أو هى كما سبق ذكره : رموز الرموز :

وهذا بالنسبة إلى اللغة المعاصرة ، التى نستطيع إدراك محتواها بالخبرة

---

(١) منهج البحث فى الأدب واللغة — مترجم عن الأستاذين مانسون ومييه — ترجمة الدكتور محمد مندور ٤٥٤ .

وبالعيان ، فما بالنا بالنصوص المكتوبة منذ قرون ، ولم نشهد أصحابها ، ولا خبرنا طريقتهم فى الكلام ؟ !

كل ذلك يكشف لنا حقيقة مقررة إذن ، هى أن الدراسة التاريخية للغة لا يمكن فى أغلب الأحوال أن تصل إلى نتائج أو أحكام قاطعة ، لأنها لا تملك سوى عينة ، لا تمثل أكثر من عشرة فى المائة من الواقع اللغوى الذى تعبر عنه ، وتنتمى إليه .

وقد يدعم هذا القدر وجود دراسات وصفية للغة التاريخية ، فى الأصوات ، أو الأداء ، أو المفردات ، أو التراكيب ، كما هى الحال فى لغة القرآن ، وتلك حالة خاصة جدا ، لا تقاس عليها أية دراسة تاريخية فى أية لغة من لغات الإنسان .